



بكائيات تاريخية على هامش القمة العربية (1- 2)

بقلم: رائف محمد الويشي

20 مارس 2010

ينعقد في مدينة سرت الليبية نهاية الشهر الجاري 27 مارس مؤتمر القمة العربي الـ22 .. يأتي انعقاد المؤتمر والعرب في أسوأ أحوالهم وعلى كل المستويات الداخلية والخارجية ..

على المستوى الداخلي ، فيمكن إيجازه في أن الحاكم العربي يقف في مواجهة شعبه خوفا من الإطاحة به إما بسبب فساده أو طغيانه أو الاثنين معا .. إن شئت بعض العناوين عن بطالة تمثل أعلى المعدلات العالمية ، وعن نقص في إنتاج الغذاء حيث تحتل الدول العربية صدارة الدول المستوردة له عالميا ، وعن فساد ونهب للثروات يحتل صدارة أكثر الدول فسادا طبقا لتقرير منظمة الشفافية الدولية ، وعن طغيان وانتهاك حقوق الشعوب الإنسانية تتحدث عنه كل المنظمات الدولية ، وعن مكائد بين القيادات العربية وبعضها والقاضي بينهم إما أمريكا أو إسرائيل ، وأخيرا وليس آخرا توريث الحكم للأبناء والأقارب ..

على المستوى الخارجي فهناك إسرائيل بملايينها السنة ، تحتل المقدسات وتضرب هنا وتتوعد هناك وتتحكم في تعيين رئيس مصر القادم (راجع حديث مصطفى الفقى – أحد أركان النظام المصري – لصحيفة المصري اليوم في 12 يناير 2010 والذي أكد فيه أن رئيس مصر القادم لابد وأن يحوز على رضا أمريكا وإسرائيل) ..

لقد تعرضت الأمة الإسلامية على مر تاريخها لمصائب شبيهة بتلك التي نمر بها الآن ، لكن الملف للنظر أن هذه المصائب تجمعت عندما حكم الأمة القادة الفاسدون والطغاة .. في عهد هؤلاء تجمع ثلوث التخلف : الهزائم العسكرية ، الأزمة الاقتصادية ، الانحلال الاجتماعي ..

لم يرفع هذا الثالوث إلا من خلال الموضع الذي دخل منه ، فعندما تسلم أمر الأمة خيارها ازدهرت الأحوال وفي كل المستويات داخلية كانت أم خارجية ..

لقد انتشرت بين ملل الأرض ونحله الأمثال التي تؤكد على أن الأمم تصلح عندما يصلح قادتها وليس العكس ، فالله يزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن ، والسمة تفسد من رأسها ..

لا أمل في هؤلاء المجتمعين في ليبيا أو منهم ، وإلا فإنه – والله – تبديل لسنن الله في أرضه ، كيف وهم قد باعوا الأرض لأعدائهم وهتكوا عرض الشرفاء من شعوبهم ونهبوا الثروات وزوروا العهود ..

يتطلب الموقف إذن منا أن نعرض ما يذكر القراء بهذه السنن من خلال نماذج من هؤلاء القادة من الجانبين لنرى الأثر الذي تركوه على حاضر ومستقبل شعوبهم .. إن تشابهت الظروف بين الماضي – مهما كان قدمه – والحاضر ، فلا بد من دراسة هذا الماضي جيدا لنخرج منه بعبارة حتى لا نكرر الأخطاء التي وقعت فيه ..

من هنا جاء قول الله تعالى " إن في قصصهم لعبرة لأولى الأبواب " ، وقوله تعالى " ألم يأتيكم نبأ الذين من قبلكم " ، وقوله تعالى " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم " ، وقوله تعالى " وكلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنبِئُ بِهِ فُؤَادَكَ " ..

حديثنا في هذه الحلقة سيكون منصبا على الخليفة المستعصم بالله ، لتشابه ظروفه مع ما يدور في منطقتنا هذه الأيام .. لابد قبل أن نتكلم عن هذا الخليفة الهالك أن ننوه إلى ملاحظة يقع في نسيانها الكثير منا ، وهي الخلط بين المعتصم والمستعصم ..

- **الخليفة المعتصم هو أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ، ولد بالكوفة في 794م (179 هـ) وبني مدينة سامراء في عام 876 م (221 هـ) ، وشهرته في صفحات البطولة تعود إلى تجهيزه لجيش قوامه أربعة آلاف رجل لتحرير امرأة مسلمة كانت تعمل لدى رومي في مدينة عمورية فأهانها وعذبها فاستنجدت بخليفتها " وامعتصماه " وبلغته تلك الاستغاثة فقال " لبيك يا أختاه " ، كانت من نتائج تلك المعركة طرد الروم من عمورية حيث كانت تعيش تلك الحرة ..**

لقد خلد الكثير من الكتاب والشعراء تلك الاستغاثة وسرعة رد المعتصم عليها ، وحرى بنا أن نتذكرها جيدا في هذه الأيام الثقيلة بنكباتها ..

يقول الشاعر أبو تمام في مطلع قصيدة عن نجدة المعتصم :
السيف أصدق أنباءً من الكتب
في حدّه الحد بين الجد واللعب

ويقول شاعر آخر :

رب وامعتصماه انطلقت .. ملء أفواه الصبايا اليتيم
لا مست أسمعهم لكنها .. لم تلامس نخوة المعتصم

- **أما المستعصم - موضوع حلفتنا - فهو على النقيض تماما من المعتصم ، وهناك فرق بين الثرى والثرية .. لقد عرض هذا المستعصم أراضي المسلمين إلى الضياع على أيدي التتار المغول ، فقتل مليونان منهم وانتهكت أعراض مئات الألوف من نسائهم .. هو أبو أحمد عبد الله بن منصور - المستعصم بالله ولد في عام 1213 (598 هـ) ، هو آخر خلفاء الدولة العباسية وحكم بغداد لمدة 16 عاما ..**

اهتم المستعصم بجمع المال والثروة ، وقد ورد أن قائدا من قواده قد استأمنه على ماله فاستولى عليه ، كما عرف عنه ولعه بجمع الذهب والأحجار الكريمة .. لقد قيل في حبه للمال والثروة الكثير والكثير ، وذكر المؤرخون في عهده أنه قد أصبح أغنى رجال الأرض .. أولى المستعصم - بجانب الثروة - اهتماما خاصا باقتناء الجوارى وقال المؤرخون أيضا أن عددهن قد وصل إلى 700 امرأة له فقط ..

كان من الطبيعي أن يقترب المنافقون وأراذل القوم من بطانته ويتردد المخلصون المحترفون من مجالسه .. كما كان طبيعيا أيضا أن يعيش أتفه الناس في بلاطه عيشا رغدا ، بينما يجوع ويشقى العلماء والمجتهدون ويتابعون من أجهزته الأمنية في كل مكان يذهبون إليه ..

تذكر الكتب أن كبير الفراهسين في قصره - والذي كان يجمع له الجوارى - كانت له أصول تدر له 500 ألف دينار في العام ولما تزوج أهدها المستعصم 300 ألف دينار ، وكان قصره في أرقى مناطق بغداد ويقف الناس أمامه عجبا من روعته الهندسية ومساحته الكبيرة .. إذا كان هذا حال كبير الفراهسين ، فيستطيع القارئ أن يتخيل ثروات كبار رجال البلاط والذين ينتشرون من حوله ويأمنون بحديثه .. بينما تذكر الكتب أن كبير علماء الخلافة وفقهائها وأستاذ الأساتذة " ابن أبو الفرج الجوزي " كان يتلقى راتبا شهريا قدره 12 ديناراً فقط ..

كان من الطبيعي أن تنهار الخدمات ويضعف الجيش وتعم الفوضى وتهبط معنويات الأمة ويتعاطى أفرادها البدع بدلا من معرفة أصول الدين وينتشر الجواسيس في أركان الدولة ..

قبل أن نخوض في غزوة المغول التتر بقيادة هولكو - حفيد جنكيز خان - في بلاد المسلمين ، لابد أن نعود قليلا إلى الوراء ونتوقف أمام حقيقة هامة تفسر ما جرى على أرض المسلمين هذه الأيام ، وهي الحملات الصليبية المتعاقبة ونذكرها تلخيصا كما يلي :

- **الحملة الصليبية الأولى :** تمكنت فيها القوات الصليبية من السيطرة على القدس وإقامة مملكة بيت المقدس في عام 1099م ومناطق أخرى مجاورة بالشام (إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس) بسبب الخلافات بين مصر الفاطمية والسلاجقة الأتراك ..

- **الحملة الصليبية الثانية :** وقعت على الشام بزعامة لويس السابع في عام 1147 م وانتهت بهزيمتهم في زمن القائد نور الدين محمود (توفي في عام 1174) وقائده صلاح الدين الأيوبي ..

- **الحملة الصليبية الثالثة :** وقعت بين عامي 1187 / 1192 م بغرض استعادة السيطرة على بيت المقدس من المسلمين ، اشتهرت بمذابح كثيرة ارتكبتها قائد الصليبيين رينشارد قلب الأسد وانهزم في حطين تحت قيادة صلاح الدين ..

- **الحملة الصليبية الرابعة :** وقعت بين عامي 1201 / 1204 م وكان هدفها الرئيسي احتلال القدس عن طريق احتلال مصر أولا ، وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها ..

- **الحملة الصليبية الخامسة** : بدأت في عام 1217 بغرض الوصول إلى القدس وحاصروا كلا من عكا بفلسطين ودمياط بمصر في عام 1218 ثم هاجموا المنصورة بمصر في عام 1221 .. فشلت الحملة في تحقيق أهدافها بسبب نجدة عسكرية من السلطان الكامل في دمشق ، وجرى التوقيع على هدنة لمدة 8 سنوات ..

- **الحملة الصليبية السادسة** : تمكنت القوات الصليبية من الاستيلاء على القدس في عام 1228 م وعقدت اتفاقا من السلطان الكامل ، لكن المسلمين استردوا بيت المقدس في عام 1244 م ..

- **الحملة الصليبية السابعة** : كانت بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع ووصلت إلى دمياط في عام 1249 ومنها إلى المنصورة حيث أسر هناك في العام التالي وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها ، وانتهت الدولة الأيوبية بوفاة الصالح نجم الدين أيوب ، وبدأت فترة دولة المماليك ..

يتضح من العرض التاريخي السابق أن أوربا فشلت في الوصول إلى بيت المقدس فشلا ذريعا وتكبدت من جراء ذلك خسائر بشرية ومادية ثقيلة ..

وصل الأوربيون إلى نتيجة – تبلورت فكرتها عقب خسارتهم لبيت المقدس في عام 1244 م - وتقضى بضرب المسلمين العرب باستخدام قوى أخرى واعدة وصاعدة في أقصى الشرق وهم المغول التتار ، فإذا ما انتصر أحد الطرفين على الآخر فإنه سيكون – حتى في حالة انتصاره – مستنزفا وهنا تدخل القوات الصليبية وتحسم الموقف لصالحها .. كان خطر التتار قد بدأ يطرق أبواب أوربا الشرقية في عام 1245 م عندما عبرت جيوشهم بولندا والمجر وأوكرانيا وبعض مناطق في روسيا ، كان قتل عصفورين بحجر واحد يطلب ضرورة توريث التتار المغول مع المسلمين العرب ..

(ملحوظة : إنها نفس النظرية التي طبقها الداهية بسمارك في النمسا وفرنسا ومناطق أخرى حين عقد تحالفات فردية مع أعدائه حتى انتصر عليهم جميعا واحدا بعض الآخر .. هي نفسها التي عقدها هتلر من ستالين ولم يلتزم بها فانهزم ، وقد أيقظوا ستالين في الساعات الأولى من فجر 22 يونيو 1941 لإخباره ببدء الاجتياح الألماني فلم يصدقهم وقال حينها " إن هذا المجنون ينتحر " ، وقد كان وانتحر بالفعل .. هي نفسها التي طبقها أمريكا في إسقاط وتفجيت الدب السوفيتي عن طريق الدماء الأفغانية .. هي نفسها مع إيران في طبعتها الأولى بمساعدة صدام ورفاق السوء ، وكان نتيجتها تدمير الاقتصاد الإيراني لمدة طويلة .. هي نفسها مع صدام ولعدة مرات بمساعدة نفس رفاق السوء ، ويلاحظ هنا رفض تركيا الاشتراك في هذه المؤامرة في عام 2003 ، رغم كونها عضوا في الناتو .. هي نفسها مع إيران الآن في طبعتها الثانية بمساعدة نفس رفاق السوء ، لكن السحر قد ينقلب على الساحر هذه المرة !!) ..

يورد الأسقف " دي مسنيل " – نائب مدير البعثات التبشيرية – في كتابه " الكنيسة والحملات الصليبية " ما يؤكد هذا الحلف الإستراتيجي ، والذي يشبه التفاف الكماشة في زمن الحروب الحديثة ، يقول الأسقف ما نصه :

" لقد كانت الحملة التنترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها ، وقد هلك لها الغرب وارتقب الخلاص على يد "هولاكو" وقائده النصراني "كتنبغا" الذي تعلق أمل الغرب في جيشهما ، ليحقق له القضاء على المسلمين ، وهو الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية ، لم يعد للغرب أمل في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم العرب والمسلمين ، وقد بادر ملك أرمينيا "هاتون الأول" وأمير طرابلس "بوهومونت السادس" وأمراء الإفرنج "صور" و"عكا" و"قبرص" إلى عقد حلف مع التتار ، يقوم على أساس القضاء على المسلمين كافة في آسيا ، وتسليم هؤلاء الأمراء بيت المقدس " ..

في 17 يناير 1249 م (646 هـ) تسلم هولاكو الكثير من الهدايا من الكنيسة البابوية ، كما سيطر النصارى على قلب هولاكو من خلال زوجة نصرانية ملتزمة بتعاليم الكنيسة تسمى " دوكتس خاتون " ، وضموا عددا كبيرا من كبار النصارى ضمن حاشيته ، وكان ضمنهم القائد العسكري الشهير " كتيغا " ، وهو من أصول تركية أرمينية ..

بدأ هولاكو تحركه واجتاحت بلاد خوارزم – هي منطقة آسيا الوسطى وتضم الآن عدة دول خرجت من عباءة الإتحاد السوفيتي- وعانت فيها فسادا وقتلت قواته كل من كان يتحرك على الأرض ، وبلغ من شدة فتكهم وفسادهم أن قال الكثير من علماء هذا الزمان أن المغول التتار هم يأجوج ومأجوج ..

كانت بلاد خوارزم على علاقة سيئة مع عاصمة الخلافة بغداد وخليفتها المستعصم ، فلما حدث لهم ما حدث من قتل ودمار فرح فيهم ، لم يكن يدرى أن الدائرة ستدور عليه قريبا ، لم يكن يدرى القول المأثور " أكلت يوم أكل الثور الأبيض " ..

كانت معارك خوارزم في قلب آسيا الوسطى تبعد عدة آلاف من الأميال عن عاصمة الخلافة في بغداد ، وكان من المفترض أن يكون لدى المستعصم الوقت الكافي كي يستعد لأسوأ الظروف بتجهيز جيشه ولو بغرض حماية ملكه ، لكن أنى له أن يفيق له من

سكرته ! ، وأين المخلصون الذين يسدون له النصيحة الخالصة لله والوطن والشعب ..

كانت الكارثة أن كبير وزرائه واسمه مؤيد الدين محمد بن العلقمي كان يجري اتصالاته السرية مع قائد جيش التتار هولوكو ويضع له أفضل الخطط لاحتلال بغداد !!

(يقول وزير البترول الأسبق الكيميائي عبد الهادي قنديل في حديث لصحيفة الفجر المستقلة في عدد رقم 57 الصادر في يوليو 2006 ما يلي : " كنا نسهر مع عاطف عبيد ويوسف بطرس غالي وغيرهما من الوزراء نتكلم عن الإصلاح الاقتصادي ، كان كلامنا منصبا على زيادة إنتاج البترول بنسبة 50 % بدلا من اللجوء إلى الطاقة النووية ، الغريب أن ما كان يدور بيننا كنت أفاجأ به على لسان السفير الأمريكي في اليوم التالي ! ") ..

يقول المؤرخون أن جيش هولوكو وصل إلى بغداد - يناير من عام 1258 م - منهكا من طول المسافة وقلة الإمدادات وزاد على ذلك الشتاء القارص .. كانت أقل مقاومة كفيلا بالإجهاد عليه وتشتيته أو تدميره ، لكن بن العلقمي كان قد تكفل بكل ما هو من شأنه تيسير مهمة جيش التتار في الاستيلاء على بغداد ..

طوق هولوكو بغداد من الشرق بينما قام أحد قادته - اسمه " بيدجو " - بتطويقها من الشرق ، ودخلت عاصمة الخلافة في حصار شديد وقاس ..

أفاق المستعصم أخيرا من سكرته وفجوره فجمع أركان بطاتته ، كانوا بن العلقمي وكبير النصارى وقائدتين من قادته العسكريين ، كان هناك رأيان :

الرأي الأول كان من بن العلقمي ، ومفاده بأنه يجب تسليم بغداد وحقق دماء المسلمين لأنه لا قبل لجيش المستعصم بمحاربة جيش هولوكو ..

الرأي الثاني كان من قائدتين من قواده العسكريين ، ومفاده أن هولوكو نكث بكل وعوده في خوارزم وقتل من استسلم والموت قتالا ودفاعا عن البلاد أشرف من القتل بعد الاستسلام ..

ثار بن العلقمي على القائدتين واتهمهما بقصر النظر وبأنهما يعرضان حياة الناس إلى الهلاك نظير بطولات لا وجود لها إلا في عقولهما .. ألح على المستعصم أن يعطى له الفرصة كي يرتب " استسلاما مشرفا " مع هولوكو ولا يستمع إلى رأى قائدتيه الطائش ..

كانت نتائج الاجتماع تصل أولا بأول إلى هولوكو المرابض بجيشه على أطرف بغداد ينتظر ، حتى أسماء من حضر هذا الاجتماع أمده بها بن العلقمي ..

رفض أحد القائدتين - كان اسمه القائد " مجاهد الدين " - خضوع المستعصم إلى رأى بن العلقمي فجهز جيشا ممن رغب في قتال التتار وذهب غربا لملاقاة قائد التتار " بيدجو " ، لكن سرعان ما انهزم بسبب قلة العدد والعدة .. رجحت هزيمة " مجاهد الدين " في غرب بغداد رأى بن العلقمي في ضرورة الاستسلام والتفاوض مع هولوكو للحصول على أي شيء ..

علم هولوكو بأن المستعصم في طريقه للتفاوض من أجل الاستسلام للحصول على الأمان فوضع شروطا أربعة وهي :

- 1- تسليم كل أسلحة المقاتلين المسلمين إلى جيش هولوكو وهدم كل الحصون حول بغداد ..
- 2- تسليم كل قادة جيش المسلمين ، وخص منهم القائدتين الذين حضرا اجتماع المستعصم إلى جيش هولوكو ..
- 3- زواج ابنة هولوكو من ابن المستعصم أبو بكر ..
- 4- يفك الحصار على بغداد بعد تنفيذ الشروط السابقة ..

كثف هولوكو من قصفه لحصون بغداد من أجل تسريع الاستسلام ، كان قصر المستعصم محاصرا وكان ما زال يظن أن بن العلقمي يقوم بواجبه من أجل تأمين حياته ، لم لا وهو قد أعدق عليه من نعم الدنيا !!!

في ذات ليلة وبينما كان المستعصم يجلس في حضرة جوارى القصر - المحاصر ! - يتسامرون أطلق أحد جنود هولوكو سهما من أحد النوافذ ، التقطه أحد أفراد الحراسة فوجد فيه رسالة كتب فيها " إذا أراد الله إيقاع قضائه وقدره ، أذهب لأصحاب العقول عقولهم " ..

لم يعد المستعصم يتحمل حصار القصر فجمع العلماء والفقهاء للذهاب إلى خيمة هولوكو للتوقيع على الاستسلام .. دخل الخيمة مع

نفر قليل من بطانته وبقي المرافقون له خارج الخيمة ، علم وهو ينتظر داخل الخيمة أن كل من كان خارجها من المرافقين قد تم قتله ..
بقي المستعصم محتجزا لدى هولالكو الذي أمر جيشه باجتياح بغداد وقتل كل المسلمين ، استمر القتل لمدة أربعين يوما .. نجا النصارى في بغداد من تلك المذابح بفضل زوجة هولالكو وقيادات الكنيسة البابوية في أوربا المتواجدة في جيش هولالكو (هو ما أكده الأسقف " دى مسنيل " في كتابه الذي أشرنا إليه) ..
كانت بغداد في ذلك الوقت هي أكبر مدن العالم مساحة وأكثرها ازدحاما بالسكان ، وزاد اللاجئون إليها من المناطق الأخرى هربا من جيش هولالكو في تدهور الأوضاع بها ، وصل عدد السكان بها في وقت الحصار إلى ثلاثة ملايين .. بلغ قتلى السكان في أربعين يوما من الاجتياح مليوني مواطنين من المواطنين العزل ..

لجأ من نجا من السكان إلى المقابر واختبئوا فيها طوال تلك الفترة .. كان الطاعون قد اجتاح بغداد بفعل انتشار الجثث في شوارع بغداد .. قتل الكثير عن دماء القتلى في مياه نهر دجلة والتي جعلته أحمر لعدة أسابيع ، قتل الكثير أيضا عن تدمير مكتبة بغداد التي كانت أرقى مكتبة على وجه الأرض وضمت في أرجائها ملايين الكتب النفيسة والتي صنع بها التتار المغول جسرا بين الضفتين ..خرج الناس من المقابر بعد توقف القتال فوجدوا الطاعون في انتظارهم وحصد منهم مليوني آخر ، بلغ بذلك عدد القتلى مليونين ..

أمر هولالكو بعد توقف القتال بتقييد المستعصم والسير به في شوارع بغداد كي يرى بأعينه ما جرى لشعبه ، ثم أمر بقتل أبنائه أمامه وسبى أخواته الثلاث ، ثم أعاده إلى الخيمة مرة أخرى بغرض استنطاقه لمعرفة الأماكن التي أخفى فيها الذهب ..

أكد له المستعصم أن كل الجواهر قد تم تسليمها إلى جنود التتار ولا يوجد أي منها في الخفاء .. رد عليه هولالكو في رواية ابن كثير " لا تتشغل بما هو في أيدي قواتي ، أنا أسألك بما تخفيه فإذا أنكرت فأنت كاذب ، أمثالك يجيدون استغناء شعوبهم ولا بد أن هناك ذبا تخفيه ، فاعترف وإلا فصلت رأسك الآن " .. أخبر المستعصم عن المكان الذي يخفى فيه بقية الجواهر وكان تحت نافورة قصر الجواني ..

أمر هولالكو حرسه بعدم تقديم الطعام إلى المستعصم حتى يبلغ الجوع منه مبلغا ، ولما أصبح على شفا الهلاك أمر هولالكو حرسه بأن يقدموا له بعضا من ثروته على طبق من ذهب ، وكانت عبارة عن أحجار كريمة وقطع من اللؤلؤ ..

ذهب هولالكو إليه قبل إعدامه وقال له " لو كنت أنفقت ربع تلك الثروة التي سرقتها من شعبك في تسليح جيشك لما تمكنت أنا وجنودي من دخول بغداد " ..

أمر هولالكو جنوده بأن يلفوا المستعصم في إحدى السجاجيد غالية الثمن المنتشرة في قصوره العديدة وداس جنوده عليه بسنابك خيولهم حتى لفظ أنفاسه ..

استدار هولالكو بعد أن تمكن من عاصمة الخلافة إلى دمشق وحلب ، فأرسل إلى حاكمها الناصر يوسف الأيوبي رسالة وقال فيها ما يلي :

" لقد علمت أننا فتحنا بغداد بأمر الله ، فقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسروا سكانها ، ووقع عليها أمر الله " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة " ، وقد جئنا بخليفتها فسألناه عن كلمات فكذب ، فوافاه الندم واستجوب منا العدم ، كان قد جمع ذخائر نفيسة ونفسه خسيصة ، اهتم بجمع المال ولم يعبأ بالرجال ، ونحن لك قادمون " ..

دب الرعب في قلب الناصر يوسف الأيوبي – حفيد صلاح الدين !! - فسلم دمشق وحلب في عام 1259 م إلى هولالكو وهرب إلى فلسطين ..

لم يكن بن العلقمي وحده في الطابور الخامس .. كان مع هولالكو مجموعة كبيرة من بلغاء اللغة العربية وفقهاء الدين الإسلامي .. كما أن بعض القادة العسكريين قد انضم بقواته إليه ، فقد ذكرت الكتب أن قائد حامية صغيرة على الحدود مع تركيا قد استنفر قواته لمقاتلة هولالكو فتصدت له حامية الموصل وهاجمته وأجهزت على قواته طمعا في الفوز برضا هولالكو والذي حضرت قواته إلى عين المكان وقضت على من تبقى من الطرفين .. كان هناك أيضا – كما أوضحنا – يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب ..

لقد خُذَّ الأدباء في بعض الأمم الدروس المستفادة مما فعله هولالكو بالمستعصم ، ومن هؤلاء كان الشاعر الأمريكي هنري دوسورث لو نجفלו في قصيدته عن هولالكو والمستعصم :

" قلت للخليفة : يالك من رجل عجوز ..
ما حاجتك اليوم بالذهب والكنوز
مالك تكنزها وتخبيئها حتى داهمتك بويلات الحرب العبوس ؟
كنوزك لن تنفعك اليوم
كان عليك أن تذرهما في الأرض
لتطرح عليك سيوفا تحميك وتحمى القوم
وتنقذ كرامتك وتحمى العرض
حبيبات الذهب لن تصير يوما سنابل قمح
أم تراك اليوم ستأكل سبائك الفضة ؟
هل سيخفف بريق اللؤلؤ والمرجان عنك آلام النقرس والأحزان ؟
أم يؤخر عنك الموت ساعة حين يعلو صهوة عرشك مثل الفرسان ؟
وتركت أسيرى حبيسا يأكل نفسه إلى الأبد
في إحدى غرف الحبس الذهبية ، لن تخترق الصرخات ولا الآهات ولا الاستغاثات
تلك الجدران الصماء والحصون الشاهقات ، ولم ير الخليفة من يومها أحد "

يستطيع المرء وبسهولة يسيرة أن ينظر إلى وجوه " أصحاب المعالي والسمو " أثناء دخولهم مؤتمر القمة العربية الجاري عقده في مدينة سرت بلبيبا كي يبحث بينهم عن بن العلقمي ، سيدرك على الفور أن هناك الكثير منهم ممن تفوقوا عليه وبمراحل .. هؤلاء خرجوا من منطقة الخفاء – حيث كان يعمل بن العلقمي – ويمارسون دوره في العن ، وبلا حياء أو خجل ..

كما يستطيع المرء وبسهولة أكثر يسر أن ينظر إلى تاريخ القادة العرب المجتمعين في سرت ، كي يدرك أن المستعصم لم يرتكب إلا القليل من الفواحش مقارنة بما فعلوه ويفعلوه مع شعوبهم :

- أعرف قائدا منهم قتل من أفراد شعبه عشرات الألوف ، وقدر المراقبون المحايدون بأن عدد القتلى قد انتقل إلى خانة مئات الألوف .. وقف هذا القائد " المظلي " يوما وقال " لقد تسلمت الحكم عن طريق القوة العسكرية ، ولا سبيل لتغييره إلا بنفس الطريقة " !!

- أعرف ثانيا منهم لم يحصل إلا على الابتدائية ، يتساقط الرزاز من فمه كلما تحدث ، ويحرص قادة الغرب عند الاجتماع معه على الجلوس بعيدا لحماية أنفسهم من " زخات " المطر المتساقط من فمه .. امتطى صهوة دابته في سبعينات القرن الماضي بمساعدة من قبيلته " الحمراء " واعتلى سدة الحكم ، ثم أعطى لنفسه رتبة فريق بعد كان شاويشا .. أطلقت دباباته وطائراته النار على شعبه – وما زالت حتى الأسبوع الماضي – فشرذ عشرات الألوف من العائلات في الصحراء والجبال ، بما فيها من أطفال ونساء وشيوخ ، وقتل الكثير منهم ، ويخلفه ابنه الوريث كظله !!!

- أعرف ثالثا منهم ، طفح من فتحاته في أدغال أوغندا في السبعينات وصحراء تشاد في الثمانينات فعاد ذليلا إلى أدرجه ، ثم تأسد على شعبه فوضع الشرفاء في المعتقلات ، وفي عصر يوم جمعة من صيف 1996 قتل 1200 من المعتقلين العزل في أقل من ساعتين في أحد السجون بعد أن عادوا إلى عنابرهم عقب صلاة الجمعة ..
حجته أن سبعة من المعتقلين نجحوا في الهرب فقام الجلادون بضرب النزلاء فرفضوا تناول الطعام احتجاجا ، فأمر " الفاتح " بفتح النار في كل العنابر عليهم .. علم العالم بعد أسبوعين بما جرى ، فخرج " أمين الأمة " و "صاحب النظرية " إلى وسائل الإعلام وقال " هؤلاء مجموعة من الزنادقة ، لا يمكن التعامل معهم بالقانون ، ليس هناك تفاهم معهم ، المعاملة معهم تكون خارج القانون " .. يصف الشعوب التي تؤمن بالديمقراطية وتداول السلطة بأنها قطعان من الحمير ، ويضع ابنه المهندس الدكتور " خنجر " خلفه كي يحل محله من بعده !! ..

- أعرف رابعا منهم ، قاد قاذفة في شبابه من طراز TU16 وأباد بها العديد من القرى بمن فيها في بلد " شقيق " ، وعرف عنه أنه كان أحد أشهر ضباط الوشاية في جيش بلاده ويكمن ذلك في تسلقه السريع أعلى المناصب على حساب رفاق السلاح .. تمسكن حتى تمكن ، وهتك وفتك ، وسرق عشرات المليارات وزور في الانتخابات وعبث بالتشريعات ، أنشأ منذ توليه سدة الحكم كشكا على قارعة الطريق للسمسرة السياسية ، وتخصص في صناعة الأسافين بين القيادات العربية والترويج للتسليم بضياح الحد الأدنى

الفلسطيني ، طعى وتجبر وقال - أو كاد - أنا ربكم الأكبر ، وتضعه المنظمات الحقوقية الدولية كأحد الطغاة الخمسة بين طغاة العالم ، وهو كغيره يضع ابنه - المستعلى - كخليفة له من بعده !! ..

- أعرف خامسا منهم ، لم يتجاوز الصف الخامس الابتدائي في طفولته والتحق بمساعدة قريب له إلى الجيش يسمى " الكافي " وسرعان ما أظهر عن مهارات فريدة في فنون الجزارة والسلخ ، تفوق على العفريت الأزرق فانضم إلى سلك الضباط وحصل على لقب جنرال ..

يزعم - وهو كاذب - بأنه خريج مدرسة " سان سير " العسكرية في فرنسا ، ويزعم - وهو كاذب - بأنه ناضل وسجن في سبيل حصول شعبه على الاستقلال من فرنسا .. شعره - واقعا - أبيض كالتلج ، لكنه - ظاهرا - أسود كليل المعتقلات في عهده ويلمع كشعر شاب في العشرينات ، والفضل في ذلك يعود إلى " تحويجة " خاصة من الصبغات مخلوطة بزيت " الزيتون " .. يضع من يتزوج على زوجته في غياهب السجون ويشجع الفجور والدعارة ويتوعد كل من ترتدي الحجاب بالعقاب ..

رفع شعبه الأيادي لله تعالى حمدا بعد أن علموا أن لا ولد له يخلفه ، لكنه سمع الدعاء - من سماعات تملأ أرجاء الوطن الأخضر - فطلب من زوج ابنته أن يقف من خلفه " كالصخر " ليخلفه ، صادر بلده في حسابه الخاص وحساب زوجته ..

اقروا إن شئتم كتابا بعنوان " صديقنا الجنرال " لمؤلفيه الفرنسيين نيكولا بو ، جان بيير توكوا ، واقروا إن شئتم كتابا بعنوان " حاكمة قرطاج .. الاستيلاء على تونس " لمؤلفيه الفرنسيين نيكولا بو وكاترين غراسيه ..

- أعرف سادسا منهم ، اعتلى " العرش " بعد أن وضع السم لرفيقه القائد ، شعبه منذ عشرات السنين وحتى الآن ينام في المخيمات ويعيش على المعونات ، لكنه يستولى - مع دستة الأشرار ، بل قل الخونة - على كل المساعدات الدولية ، حتى تلك المخصصة للأيتام (تقرير عزمي الشعبي مندوب الشفافية الدولية) ، تحالف مع عدوه في العام الماضي عندما قصف مخيمات شعبه وصب " الرصاص المسكوب " على رأس شعبه فمات 1500 من الأطفال والشيوخ والنساء ..

والله إن هؤلاء لا يجتمعون إلا على ضلال الأمة ولا خير يرجى منهم أو فيهم ، ولا يثق بهم إلا غافل أو خائن لدينه ووطنه وشعبه .. وكما توقفت الأجيال الماضية أمام هذا " المستعصم " تصب اللعنات عليه وعلى شعبه الذي رضي بهذا الهوان ، فإنني أعتقد قياسا أن أجيال المستقبل ستوقف أمامنا أيضا لتصب علينا نفس اللعنات لأننا رضينا لأنفسنا أن يحكمنا نفر هم - في أغلبهم - من أصحاب العاهات الذهنية ، بينما تفوز المعارضة في أدغال إفريقيا ويحدث فيها تداول على السلطة ..

**اقلع غماك ياطور وارفض تلف
اكسر تروس الساقية واشتم وتف**

في الحلقة القادمة - إن شاء الله - سنقرأ بكائية أخرى من بكائيات التاريخ ، علها تنير لنا طريقا في ظلامنا الدامس داخل هذا النفق المظلم ، فإلى اللقاء ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com